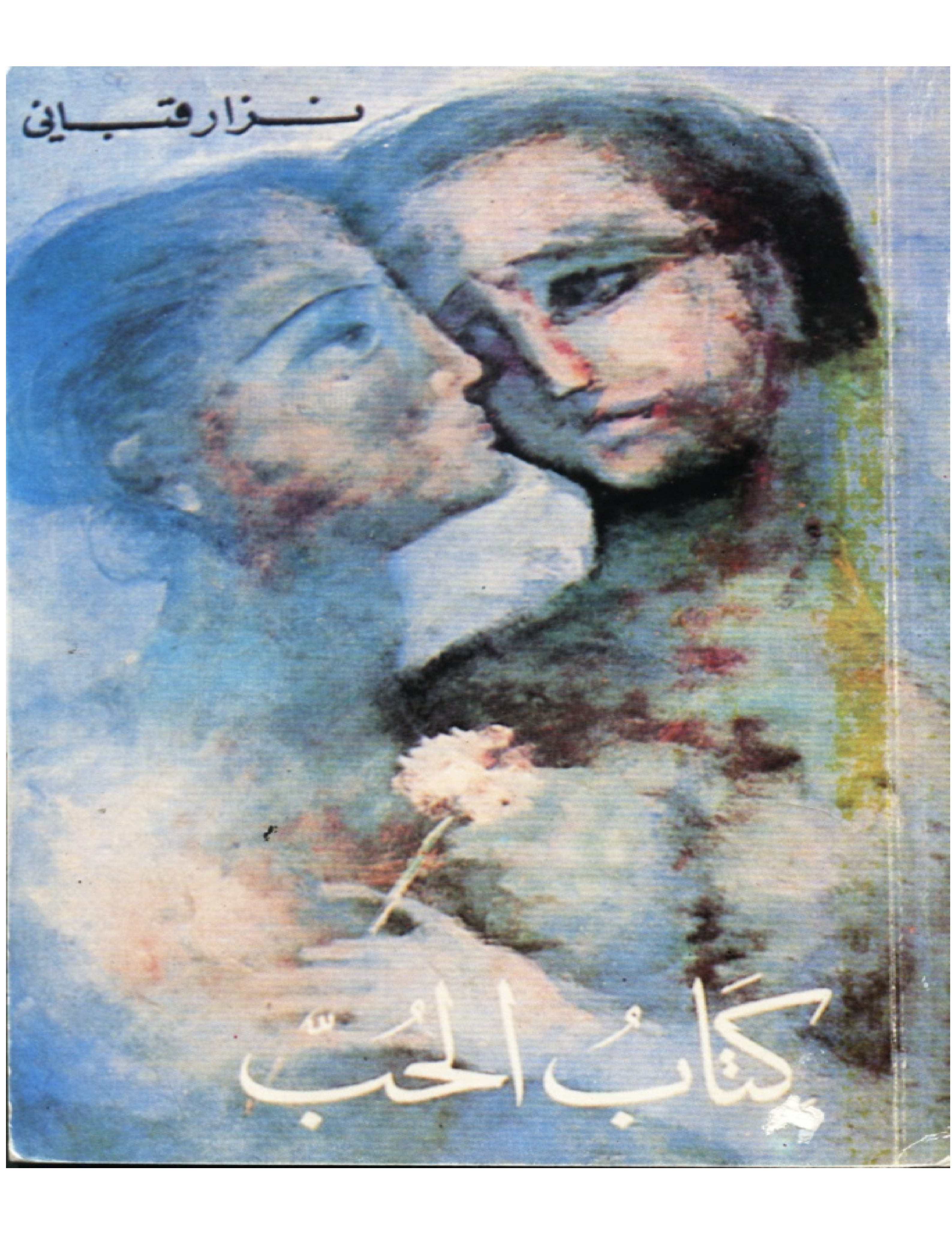

نزار قباني
كتاب الحب

إلى زوجتي الغالية

بلقيس

رفيقة العمر

ورفيقة الشعر

نزار

(كتـاب الحـب) محاولـة لكتابـة القصـيدة العربيـة بشـكل جديـد ، وإلباسـها ثوبـاً عصـرياً ومريحـاً وعمليـاً ، بعد أن أرهق جسد القصيدة العربيـة طـوال عصـور بأثواب مفرطة في طولها واتساعها ورداءة قصتها .
والواقع أن القطاع الأكبر من شعرنا العربي التقليدي استهلك من القمـاش اللغـوي ما يكفي لكساء كل سكان الصين ...
هذا التبذير في استعمال اللغة إلى درجة الإنهـاك ، جعل قصـائدنا – كعباءاتنـا – لا يسكن فيها جسد صاحبها فحسب ، وإنما جسد القبيلة كلها .
ويا طالما بحثت منذ أن بدأت فـي كتابـة الشـعر ، عن معادلـة شعرية يكـون فيهـا اللابـس والملبـوس قطعـة واحـدة لـيس فيهـا نتـوءات ، ولا حواشـي . ولا زوائـد بلاغية متهدلة .
كنت دائماً أحلم بشعر عربي تكون فيـه مسـاحة الكلمـة بمسـاحة الانفعـال ، وحجـم الصوت الشعري بحجم فم الشاعر .. وبحجم هواجسه .
كنت أؤمن أن الشعر لمطّ صوته بطريقـة مسرحية ، ومدّ انفعالـه علـى سـطح أوسع يخرجه من حديقة الشعر ويدخله في سراديب الثرثرة الشعرية .
الثرثـرة الشـعرية هـي فجيعـة شـعرنا العربـي .. ونظـرة واحـدة إلـى أهرامـات القصائد العربية القديمة توضح لنا أننا تكلمنا أكثر من اللازم ..
الشعر هو خلاصة الخلاصة .. كما قلت .
لذلك كان أعظم الشـعراء هم أولئك الذين كتبـوا بيـت شـعر واحـداً .. ومـاتوا بعد كتابته مباشرة ..
ليس من وظيفة الشعر أن يشرح كل شيء وبكلمة أدق .. أن يقتل كل شـيء ..
الشرح الطويل عمل من أعمال الببغاوات ، والعجائز ، ونشرات الأخبار ..
وظيفة الشعر هي أن يعطيك بطاقة سفر .. دون أن يتـدخل فـي تفاصـيل الرحلـة ، ومواعيد القطارات التي ستركبها ، وأسماء الفنادق التـي ستنزل فيها ..
وظيفـة الشـعر .. هـي أن يضـع أمامـك الزجاجـة والكـأس .. ويتركـك تسـكر علـى طريقتك ..
وظيفـة الشـعر أن يضـع فـي إصـبعك خـاتم سـليمان .. وعليـك أنـت أن تستحضـر المارد .. وتطلب منـه ما تريد من لبن وعسل وحوريات ..

اللعبة الشعرية .. لعبة إشارات ضوئية . واللاعب الكبير فيها هو الذي يحتفظ بالقدرة على الصمت ويعرف متى يلقي ورقة الدهشة .
الكلام الكثير على طاولة الشعر .. كالكلام الكثير على طاولة القمار .. لا يجلب سوى الخراب .
الكلام الكثير فيه مقتلنا .. هذا شيء معروف . ومعروف أيضاً ، أن القصائد الأكثر فشلاً في تاريخنا الشعري هي القصائد التي تحولت إلى نوع من الجرائد اليومية .. إلى نوع من أجهزة الإعلام . هي القصائد التي تعطل جهاز الرقابة الداخلية فيها .

*

في هذا الكتاب تؤدي اللقطة الشعرية عمل جهاز الإضاءة الـ Flash في كاميرا التصوير .. ويصبح الشعر إضاءة سريعة عمرها ثانية أو جزء من أجزاء الثانية .
اللفظة الشعرية هنا .. برق .. ورفة جفن .. والتماعة سيف . إنها طيران عصفور .
ربما لم يتعود القارئ العربي المرتبط تاريخياً ووراثياً بالألفيات ، والمعلقات .. على طيران العصافير .. هذا لا يهم . إنه سيتعود عليه ..
ومثلما قبل الذوق العربي ، تلك الثورة المدهشة التي قام بها الشعر العربي على نفسه ، خلال العشرين عاماً الأخيرة وغير بها جلده وثيابه .. فإنه سيرحب حتماً بكل حركة شعرية تزيد ارتباطه بالعصر .
من ذا الذي يرفض وثوب الخيل .. وطيران العصافير ؟

*

والحب في قصائد هذا الكتاب ليس الحب القديم الذي يقف أمام خيمة الحبيبة ، أو تحت شباكها عشر ساعات .. حتى تمل الحبيبة .. ويمل الشباك ..
الحب هنا ، بحمل كل ملامح عصرنا من سرعة وإيجاز .. وتوتر .. وكثافة ..
الحب هنا ، ليس لديه الوقت لكتابة المكاتيب .. وفتح الفناجين .. إن يستعمل الأسلوب البرقي في مخاطبة الحبيبة ..
لغة العشق في هذا الكتاب مكثفة ومضغوطة كما لم يحدث في تاريخ العشق وتاريخ البوح ..
وربما قصدت من كتابة هذا الكتاب ، أن يكون قاموساً موجزاً وعصرياً للعشق ، يرجع إليه العشاق المعاصرون ليتعلموا منه كيف يقولون بكلمة واحدة .. ما كانوا يقولونه لحبيباتهم بكلمات ..
" قاموس العشق "
قد أكون طموحاً أكثر من اللازم ، ومغروراً أكثر من اللازم ..

ولكنني لا أتراجع عن أحلامي بسهولة . فأنا منذ طفولتي أحلم بكتابة (نشيد إنشاد) يحمل توقيعي .. وقد ظللت أطارد هذا الحلم حتى حولته إلى حقيقة .. من الحبر و الورق ..

*

وبعد ، فهذا هو (نشيد إنشادي) ..

وأقول لكم ، بكل صدق وصفاء ، إنه أتعبني واستهلكني . لقد اشتغلت عليه كما لم أشتغل على أي كتاب صد لي من قبل .

مزقت عشرات المسودات ، ورميت عشرات التصاميم التي لم تكن على درجة من التركيز والكثافة تسمح لها بدخول هذا الكتاب المكون بالغرابة .

إن قصيدة تتألف من بيتين .. كانت تأخذ مني شهرين من العمل . ومن خلال عملية الشطب ، والقص ، والتمزيق .. عرفت وجعاً جديداً لم أعرفه في كل تاريخي الشعري . إنه وجع الإيجاز .. وجع إدخال الحياة كلها في خرم إبرة ..

هذا هو " نشيد إنشادي " أتركه على وسائد المحبين .. وأطفئ القنديل .. وأنسحب .

نزار

-١-

ما دمت يا عصفورتي الخضراء

حبيبتي

إذن . . فإن الله في السماء

-٢-

تسألني حبيبتي :

ما الفرق بيني وما بين السما ؟

الفرق ما بينكما

أنك إن ضحكت يا حبيبتي

أنسى السماء

-٣-

الحب يا حبيبتي

قصيدة جميلة مكتوبة على القمر

الحب مرسوم على جميع أوراق الشجر

الحب منقوش على . .

ريش العصافير ، وحبات المطر

لكنّ أي امرأة في بلدي

إذا أحبت رجلاً

ترمى بخمسين حجر . .

-٤-

حين أن سقطت في الحب

تغيرت . .

تغيرت مملكة الرب

صار الدجى ينام في معطفي

وتشرق الشمس من الغرب . .

-٥-

يا رب . قلبي لم يعد كافياً

لأن من أحبها . . تعادل الدنيا

فضع بصدري واحداً غيره

يكون في مساحة الدنيا

-٦-

مازلت تسألني عن عيد ميلادي

سجل لديك إذن . . ما أنت تجهله

تاريخ حبك لي . . تاريخ ميلادي

-٧-

لو خرج المارد من قمقمه

وقال لي : لبيك

دقيقة واحدة لديك

تختار فيها كل ما تريده

من قطع الياقوت والزمرد

لاخترت عينيك . . بلا تردد . .

-٨-

ذات العينين السوداوين

ذات العينين الصاحيتين الممطرتين

لا أطلب أبداً من ربي

إلا شيئين . . ؟

أن يحفظ هاتين العينين

ويزيد بأيامي يومين

كي أكتب شعراً

في هاتين اللؤلؤتين . .

-٩-

لو كنت يا صديقتي

بمستوى جنوني . .

رميت ما عليك من جواهر

وبعت ما لديك من أساور

ونمت في عيوني

-١٠-

عدي على أصابع اليدين ، ما يأتي

فأولاً : حبيبتي أنت

وثانياً : حبيبتي أنت

وثالثاً : حبيبتي أنت

ورابعاً وخامساً

وسادساً وسابعاً

وثامناً وتاسعاً

وعاشراً . . حبيبتي أنت . .

-١١-

لأن كلام القواميس مات

لأن كلام المكاتيب مات

لأن كلام الروايات مات

أريد اكتشاف طريقة عشق

أحبك فيها . . بلا كلمات

-١٢-

أنا عنك ما أخبرتهم . . لكنهم

لمحوك تغتسلين في أحداقي

أنا عنك ما كلمتهم . . لكنهم

قرأوك في حبري وفي أوراقي

للحب رائحة . . وليس بوسعها

أن لا تفوح . . مزارع الدراق

-١٣-

أكره أن أحب مثل الناس

أكره أن أكتب مثل الناس

أود لو كان فمي كنيسة

وأحرفي أجراس . .

-١٤-

أشكوك للسماء

أشكوك للسماء

كيف استطعت كيف ، أن تختصري

جميع ما في الأرض من نساء

-١٥-

ذوبت في غرامك الأقلام

من أزرق . . وأحمر . . وأخضر . .

حتى انتهى الكلام

علقت حبي لك في أساور الحمام

ولم أكن أعرف يا حبيبتي

أن الهوى يطير كالحمام

-١٦-

حبك يا عميقة العينين

تطرف

تصوف

عبادة

حبك مثل الموت والولادة

صعب بأن يعاد مرتين

-١٧-

عشرين ألف امرأة أحببت . .

عشرين ألف امرأة جربت

وعندنا التقيت فيك يا حبيبتي

شعرت أني الآن قد بدأت . .

-١٨-

لقد حجزت غرفة في بيت القمر

نقضي فيه نهاية الأسبوع يا حبيبتي

فنادق العالم لا تعجبني

الفندق الذي أحب أن أسكنه هو القمر

لكنهم هناك يا حبيبتي

لا يقبلون زائراً يأتي بغير امرأة . .

فهل تجيئين معي . .

يا قمري . . إلى القمر ؟

-١٩-

لن تهربي مني . . فإني رجل مقدر عليك . .

لن تخلصي مني . . فإن الله قد أرسلني إليك . .

فمرة . . أطلع من أرنبتي أذنيك

ومرة أطلع من أساور الفيروز في يديك

وحين يأتي الصيف يا حبيبتي

أسبح كالأسماك في بحيرتي عينيك

-٢٠-

لو كنت تذكرين كل كلمة

لفظتها في فترة العامين

لو أفتح الرسائل الألف . . التي

كتبت في عامين كاملين

كنا بآفاق الهوى

طرنا حمامتين

وأصبح الخاتم في

إصبعك الأيسر . خاتمين

-٢١-

لماذا .. لماذا .. منذ صرت حبيبتي

يضيء مدادي .. والدفاتر تعشب

تغيرت الأشياء منذ عشقتني

وأصبحت كالأطفال .. بالشمس ألعب

ولست نبياً مرسلاً غير أنني

أصير نبياً .. عندما عنك أكتب .

-٢٢-

أحببتني شاعراً طارت قصائده

فحاولي مرة أن تفهمي الرجلا

وحاولي مرة أن تفهمي مللي

قد يعرف الله في فردوسه المللا

لي شهوتي مثلما للناس شهوتهم

ولست رباً خرافياً ولا بطلا . .

محفورة أنت على وجه يدي . .

كأسطر كوفية

على جدار مسجد . .

محفورة في خشب الكرمي . . يا حبيبتي

وفي ذراع المقعد . .

وكلما حاولت أن تبتعدي

دقيقة واحدة

أراك في جوف يدي . .

لا تحزني . .

إن هبط الرواد في أرض القمر

فسوف تبقين بعيني دائماً

أحلى قمر . .

-٢٥-

حين أكون عاشقاً

أشعر أني ملك الزمان

أمتلك الأرض وما عليها

وأدخل الشمس على حصاني

-٢٦-

حين أكون عاشقاً

أجعل شاه الفرس من رعيتي

وأخضع الصين لصولجاني

وأنقل البحار من مكانها

ولو أردت أوقف الثواني

-٢٧-

حين أكون عاشقاً

أصبح ضوءاً سائلاً

لا تستطيع العين أن تراني

وتصبح الأشعار في دفاتري

حقول ميموزا وأقحوان

-٢٨-

حين أكون عاشقاً

تنفجر المياه من أصابعي

وينبت العشب على لساني

حين أكون عاشقاً

-٢٩-

إني أحبك عندما تبكينا

وأحب وجهك غائماً وحزينا

الحزن يصهرنا معاً ويذيبنا

من حيث لا أدري ولا تدرينا

تلك الدموع الهاميات أحبها

وأحب خلف سقوطها تشرينا

بعض النساء وجوههن جميلة

وتصير أجمل .. عندما يبكينا

-٣٠-

عمر وجهي ..

مثل عمر الأرض .. آلاف العصور

عمر حزني

مثل عمر الله . . أو عمر البحور

يوم ميلادي ، أنا أجهله

فالذي يحسب يا سيدتي

ليس عمري . . إنما عمر شعوري

أخطأت يا صديقتي بفهمي . .

فما أعاني عقدة

ولا أنا أوديب في غرائزي وحلمي

لكن كل امرأة أحببتها

أردت أن تكون لي

حبيبتي وأمي . .

من كل قلبي أشتهي

لو تصبحين أمي . .

-٣٢-

جميع ما قالوه عني . . صحيح

جميع ما قالوه عن سمعتي

في العشق والنساء . قول صحيح

لكنهم لم يعرفوا أنني

أنزف في حبك مثل المسيح

-٣٣-

يحدث أحياناً أن أبكي

مثل الأطفال بلا سبب

يحدث أن أسأم من عينيك الطيبتين

بلا سبب . .

يحدث أن أتعب من كلماتي . .

من أوراقي .. من كتبي

يحدث أن أتعب من تعبي ..

-٣٤-

عيناك مثل الليلة الماطرة

مراكبي غارقة فيها ..

كتاباتي منسية فيها ..

إن المرايا ما لها ذاكرة ..

-٣٥-

كتبت فوق الريح

إسم التي أحبها

كتبت فوق الماء

لم أدر أن الريح

لا تحسن الإصغاء

لم أدر أن الماء

لا يحفظ الأسماء . .

-٣٦-

ما زلت يا مسافرة

ما زلت بعد السنة العاشرة

مزروعة كالرمح في الخاصرة

-٣٧-

كرمال هذا الوجه والعينين

قد زارنا الربيع هذا العام مرتين

وزارنا النبي مرتين

-٣٨-

أهطل في عينيك كالسحابة

أحمل في حقائبي إليهما

كنزاً من الأحزان والكآبة

أحمل ألف جدول

وألف ألف غابة

وأحمل التاريخ تحت معطفي

وأحرف الكتابة

-٣٩-

أروع ما في حبنا أنه

ليس له عقل ولا منطق

أجمل ما في حبنا أنه

يمشي على الماء ولا يغرق

-٤٠-

لا تقلقي .. يا حلوة الحلوات

ما دمت في شعري وفي كلماتي

قد تكبرين مع السنين .. وإنما

لم تكبري أبداً .. على صفحاتي

-٤١-

ليس يكفيك أن تكوني جميلة

كان لا بد من مرورك يوماً

بذراعي ..

كي تصيري جميلة

-٤٢-

وكلما سافرت في عينيك يا حبيبتي

أحس أني أركب سجادة سحرية

فغيمة وردية ترفعني

وبعدها .. تأتي البنفسجية

أدور في عينيك يا حبيبتي

أدور مثل الكرة الأرضية . .

-٤٣-

كم تشبهين السمكة

سريعة في الحب . . مثل السمكة

جبانة في الحب . . مثل السمكة

قتلت ألف امرأة . . في داخلي

وصرت أنت الملكة . .

-٤٤-

أني رسول الحب . .

أحمل للنساء مفاجآتي

لو أنني بالخمر . . لم أغسلهما

نهداك . . ما كانا على قيد الحياة

فإذا استدارت حلمتاك

فتلك أصغر معجزاتي . .

-٤٥-

أجمل ما فيك هو الجنون

أجمل ما فيك – إذا سمحت لي –

خروج نهديك على القانون . .

-٤٦-

تعري . . فمنذ زمان طويل

على الأرض لم تسقط المعجزات

تعري . . تعري

أنا أخرس

وجسمك يعرف كل اللغات

-٤٧-

كان نهداك . . في العصور الخوالي

ينشدان السلام مثل الحمامة

كيف ما بين ليلة وضحاها

صار نهداك . . مثل يوم القيامة ؟

-٤٨-

ضعي أظافرك الحمراء . . في عنقي

ولا تكوني معي شاةً . . ولا حملا

وقاوميني ، بما أوتيت من حيلٍ

إذا أتيتك كالبركان مشتعلاً

أحلى الشفاه التي تعصي . . وأسوأها

تلك الشفاه التي دوماً تقول : بلى

-٤٩-

كم تغيرت بين عام وعام

كان همي أن تخلعي كل شيء

وتظلي كغابة من رخام

وأنا اليوم لا أريدك إلا

أن تكوني . . إشارة استفهام

. . وكلما انفصلت عن واحدة

أقول في سذاجة :

" سوف تكون المرأة الأخيرة "

" والمرة الأخيرة . . "

وبعدها . . سقطت في الغرام ألف مرة

ومت ألف مرة . .

ولم أزل أقول :

" تلك المرة الأخيرة . . "

عبثاً ما أكتب سيدتي

إحساسي أكبر من لغتي

وشعوري نحوك يتخطى

صوتي .. يتخطى حنجرتي

عبثاً ما أكتب .. ما دامت

كلماتي .. أوسع من شفتي

أكرهها كل كتاباتي

مشكلتي أنك مشكلتي

لأن حبي لك فوق مستوى الكلام

قررت أن أسكت ..

والسلام ..

******* النهاية *******